

قراءات

كتب بالعربية

قسطنطين زريق:

عربي للقرن العشرين

عزيز العظمة

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2003.

297 صفحة. 8 دولارات.

قسطنطين زريق، المفكر القومي العربي الوحيد والباحث والمؤرخ والمربي، هو أحد أبرز عمالقة الفكر القومي أواخر القرن الماضي في الوطن العربي. وهو يعني الكثير لجيل كامل من القوميين يحملون له ديناً كبيراً لريادته مسيرة الفكرة العربية القومية الوحودية التي تعارض الإقليمية والتجزئة والطائفية والعشائرية. وقد اتسع فكره وعطاؤه ليغطي مساحة واسعة صرفها وهو يزرع بذور المعرفة والنهضة والوحدة في أرجاء الوطن العربي كله. عاش مفكرنا العظيم التاريخ المعاصر وشهد أحداثه المؤلمة فلم يلق راية الوعي القومي، ولم يتنكر لما آمن به حتى وهو يعايش أشد النكبات التي حلت بالأمة العربية. ووقف قلمه وعلمه على خدمة قضايا العصر واندماج في تطوراتها من أجل خدمة أمته. وكانت القضية الفلسطينية أبرز وأهم القضايا التي كرس لها كل ما يملك من موهبة واندفاع، ذلك بأن القضية الفلسطينية قضية قومية ترتبط بأوضاع المجتمع الكبير الذي تتحرك فيه، ولذا يصبح إصلاح المجتمع العربي شرطاً أساسياً لانتصار القضية. ومن هنا فإن في مقدم الهموم التي شغلت مفكرنا العربي زريق هم إعادة الثقة إلى النفوس، وتحويل العجز إلى قدرة ذاتية تعتمد على المعرفة، معرفة الغير ومعرفة الذات. أمّا عن السبيل إلى هذا التحول السريع فهو في أمور خمسة: أن يأتي التبدل المنشود جذرياً ونوعياً، وأن يهتدي بالعقل ويخضع لأحكامه، وأن يقيم وزناً للعمل، وأن يجري في جو مشبع بالحرية، وأن يهدف إلى إنشاء مجتمع يتميز بالعقلانية والفضيلة معاً. لقد كان زريق موسوعة قومية نهضوية تختزن أكبر مصدر نعرفه في عصرنا من تاريخنا الثقافي والتربوي والسياسي المعاصر. وفي كل إنتاجه الفكري كان يحاول قراءة التاريخ، ورصد الأحداث، واستشراف المستقبل، والاطلاع على تجارب الغير، واستخلاص العبر والدروس. أحب زريق أمته، وأدرك واقعها، وتطلع

بصدق وحماسة إلى نهوضها. ولقد حفزت التجربة العربية زريق على إنشاء العديد من المؤسسات الوجدوية. وحفزت نكبة فلسطين الأولى، وما تلاها، الرجل على المشاركة في إنشاء مؤسسة الدراسات الفلسطينية لتصبح نموذجاً يحتذى في البحث العلمي في القضية الفلسطينية.

ويمكن أن نعدّ عزيز العظمة أكثر تلامذة زريق قدرة على أن يوفي المفكر الكبير حقه ويضعه في المكانة التي تليق به في عالم الفكر والثقافة، وأن يحلّق في الكتاب الذي بين أيدينا، كي يطال قامة الرجل الذي أقر الجميع بعظمته، نظراً إلى متانة صلة عزيز بأستاذه الكبير، ولما اتسم به التلميذ من فكر حر وموضوعي ممتزج بإعجاب وتقدير كبيرين من دون مبالغة وإطناب. وتحت عنوان، "قسطنطين زريق: عربي للقرن العشرين"، يحمل كل المعاني ويستوعب العروبة كاملة، قدّم عزيز العظمة، في مخطط متناسق، نمطاً جديداً في الكتابة عن الشخصيات. ففي فصل له بريق خاص أطلق عليه عنوان "حياة في نسيج العصر"، عرض حياة الرجل في محطاتها الحافلة والمتنقلة، موثقة بالتواريخ، ورصد بدايات تكوينه الفكري وشواغله المتعددة الأدبية والعلمية والسياسية في تلك المحاضرات والكلمات والخطب منذ الثلاثينات لإظهار ثبات فكره الذي توسع فيما بعد، ومحلّقاً بالقارئ في أجواء السمو الأخلاقي، المكون الأساسي لخصاله الفاضلة. إلا إن الدكتور عزيز في تقديمه معالم هذه الشخصية الفذة لم يركز على أحداث وتجارب شخصية، فقد قلّص مساحة السيرة الخاصة (ص 9 - 96) كي تتوسع لتكون سيرة جيل كامل أو مرحلة شغلت معظم القرن العشرين. إلا إنه كان يصعب على الدكتور العظمة، في كثير من الأحيان، أن يفصل ما بين الخاص والعام في سيرة زريق، أو أن يقتصر على المعلومات التي لها صلة وثيقة بحياته.

وفي فصلين تالين (ص 97 - 163) قدم العظمة توصيفاً ومعالجة إبداعيين للفكر الزريقي القومي، ولجوانب هذا الفكر الأدبية والعلمية والثوابت الأخلاقية، دلّل فيهما المؤلف على فهم عميق لهذا الفكر والغوص في ثناياه ومعالجة أبعاده بروح التقصي العلمي والدقة المنهجية وأمانة النقل. وأحسن اختيار الاقتباسات من كتابات زريق وإنزالها في سياقها المناسب. وقد حاول في الفصل الرابع (ص 165 - 181) أن يطرح رؤية زريق فيما يتعلق بالصناعة التاريخية ومنهج البحث التاريخي. كما حاول العظمة، في الفصل الأخير من الكتاب (ص 183 - 204): "الراهن من قسطنطين زريق، خلاصات تحليلية وتركيبية"، أن يجري "استصلاحاً" لفكر زريق، كما سمّاه، وذلك لتقريب هذا الفكر من المعاصرة، وإن كان في هذه المحاولة بعض التجاوز لما رآه زريق في عصره.

اعتمد المؤلف في كتابه على كمّ هائل من المصادر (ص 205 - 297) جمعها وبوّبها بجهد بالغ وبدقة علمية؛ ومن هذه المصادر كتابات زريق: كتب ودراسات

ومقالات ومقابلات ومؤتمرات ومحاضرات وتقارير وأحاديث ومراجعات وتعقيبات باللغة العربية وبلغات أجنبية، وهي تشكل فهرساً شاملاً لأعمال زريق مصنفة ومبوبة يندر أن تتوفر فيما كتب سابقاً عن زريق. هذا إضافة إلى أوراق زريق ومذكراته الشخصية غير المنشورة. وقد رجع العظمة إلى مراجع أخرى متخصصة بشواغل زريق الفكرية، منها كتب وصحف ودوريات عربية وأجنبية، إلى جانب كلمات التقريظ والكتب التكريمية. واستفاد المؤلف كذلك من كثير من المصادر العامة لإضفاء الشرح على ما أورده في ثنايا الكتاب، أو من أجل المقارنة مع أفكار زريق. والملاحظ أن المؤلف وضع أحد كتب زريق القومية الأولى، "الكتاب الأحمر"، كملحق للفصل الثاني (ص 120 - 137). وعلى الرغم من الأهمية القصوى للكتاب، الذي وضعه زريق مع آخرين ربما في أواخر الثلاثينات، وبعنوان جانبي "القومية العربية: حقائق وإيضاحات ومناهج"، فقد كان يفضل أن يرد الكتاب كملحق مصوراً في آخر الدراسة. كما كان يفضل نقل الجدولين في الصفحتين 41 - 42 إلى الملاحق.

ولو سمح لي المؤلف بأن أتقدم ببعض الملاحظات التي لا تمس جوهر الكتاب ولا تقلل أهميته، لأمكنني إيراد مجموعتين من هذه الملاحظات:

المجموعة الأولى وتعلق بالأسلوب، إذ يتسم أسلوب د. عزيز بوقع متميز؛ فهو السهل الممتنع الذي وضع للخاصة، ويجهد القارئ في الوقوف ملياً عند مصطلحاته وتراكيبه وعند الرؤية الخاصة التي أسبغها المؤلف على فكر زريق.

(أ) لذا فإن بعض عباراته وشروحاته يلفه نوع من الغموض والتعقيد، ويحتمل شيئاً من التبسيط. ومثال ذلك: ص 35: "ترجمة الدين إلى طاقة تترجم بالواجب الأخلاقي"؛ ص 44: "انتضت الحماسة ديدناً أعلنت به نخبويتها".

(ب) استخدم المؤلف بعض مصطلحات تبدو غير مألوفة إلى حد ما، مثال ذلك: ص 38: "إتيكيت وشجون الشيوخة"؛ ص 113: "ميتا - سياسي"؛ ص 114: "ماوراء تاريخية للتاريخ"؛ ص 158: "تهتك النصاب الحضاري"؛ ص 160: "الانشطار العصبوي"؛ ص 203: "الاستعارة العضوانية".

كما أنه يكثر من الجمل الاعتراضية التي قد تقطع تسلسل الأفكار، وكان يفضل وضعها في الهامش.

أمّا المجموعة الثانية من الملاحظات، فتتعلق بأفكار ورؤى كان يجدر أن تنال نصيباً أوفى من التفكير والنظر فيها: ص 14: أورثوذكس ومسلمو حيّ الميدان ينعنون بالميل إلى البلطجة؛ ص 71: (كان يفضل حذف هامش 219 بشأن حادثة جامعة دمشق لأن زريق كان لا يرغب في ذكر الحادثة)؛ ص 83: استمرار الاستزلام الطائفي والإقطاع الإداري إلى اليوم؛ ص 86: نقد موجه إلى الجامعة الأميركية؛ ص 89 - 90: نقد موجه إلى جامعة الكويت؛ ص 109: التباهي بالتخلف ومظاهره وجعلها علماً على

الأصالة؛ ص 111: تخلف الفكرة العربية في مصر؛ ص 193، 195، 196: توجيه النقد إلى فكر عفلق؛ ص 197: نقد المفكرين المصريين وضحالة تفسيرهم للفكر القومي؛ ص 198، 199: نظريات وأفكار فيما يتعلق بالعروبة والإسلام (وهي قضايا لم تشغل فكر زريق)؛ ص 202: المقابلة بين محمد "صلعم" وغاريبالدي.

خيرية قاسمية

كاتبة فلسطينية مقيمة بدمشق

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>